عسكرة المجتمع (المؤسسة التعليمية، الخطاب الاعلامي، الأدب والفن)

١- **عسكرة المؤسسة التعليمية:** بدأ البعث البائد فور نجاح انقلابه في (١٩٦٨/٧/١٧م) بخطة شاملة لتبعيث كل مفاصل الحياة فأخذ يملأ الوزارات والدوائر الحكومية بصور تجمع (أحمد حسن البكر، وصدام حسين) .

وهكذا أخذت شعارات البعث طريقها للشوارع والجدران والبيوت، فضلًا عن المهرجانات والفعاليات الثقافية التي تمجد النظام وقادته، وقد كان للقصيدة والأغنية والأنشودة وحتى المسلسلات التلفزيونية الدور الكبير في اشاعة مفردات الحزب وتلقين طلبة المدارس وحثهم على التغني بشعارات الانقلابيين .

ثم بدأت عسكرة المجتمع بنشر الكتب الدراسية المنهجية وكان الطالب حين يفتح كتابه يرى في أول صفحة صورة رمزية النظام (البكر، صدام) التي اقتصرت لاحقًا على صورة (صدام) فقط .

إن اللون والصور والأنشودة وسائل اعتمدها البعثيون للتلاعب بالوعي المجتمعي فأين ما تلتفت ترى شعارًا أو صورة تخص السلطة، ولم يكتفِ البعثيون بهذا بل أخذوا يلقنون أطفال المدارس ويلوثون عقولهم بألفاظ مثل: (الأب القائد)، وكانت مخصصة للبكر، قبل أن تشيع فيما بعد عبارة (بابا صدام) التي حفظها ورددها الأطفال في المدارس .

لقد كانت قصائد العنف والقصائد التي تتغنى بمنجزات البعث تملأ الكتب المدرسية ومن هنا بدأت عسكرة المجتمع، فطالب الابتدائية يحفظ ما يريده البعثيون الزامًا ثم يتم إغراء التلاميذ الصغار بملابس عسكرية جديدة وزجهم بتنظيم ناشئ يسمى الطلائع، وفي هذا التنظيم يتلقى التلاميذ جرعات مضاعفة من التشويه الثقافي والتشجيع على العنف، فقد علموا الطالب الصغير أن قبعة الرأس العسكرية (الكاسكيته) تمثل شرفه العسكري ويجب أن لا تقع، وهكذا وهبوا قطعة او خرقة قماش قداسة تسلب وعي الصغار الذين سيكبرون وهم مقتنعين بهذه البدعة .

حين يتحول الطالب إلى الدراسة المتوسطة يكون قد ارتفع رتبة ليغادر مرحلة الطلائع ويدخل مرحلة الفتوة وهي مرحلة ما قبل المستقبل العسكري الحتمي، وتستمر معه الأناشيد ويتم تشجيع الطلبة على نوع من

استقلالية الرأي عن أهلهم؛ لأنَّ السلطة حريصة عليهم، كما يروج البعثيون، وهكذا يستعد الطالب لاستخدام السلاح بدلًا من القلم بعد أن شاع شعار (للقلم والبندقية فوهة واحدة) وهو شعار تلويثي سالب العقل والتفكير، وسرعان ما قام البعثيون بزج الطلبة في قواطع تدريب على السلاح وخفارات في الفرق الحزبية، وصار بيد الطلبة سلاح يجعلهم يتمردون على سلطة العائلة وأخلاقها .

تضافرت الروابط المتينة بين البكر وصدام مع دهاء صدام وقسوته المطلقة في فتح الطريق أمام الأخير للصعود من موقع خامل الذكر نسبيا عام ١٩٦٦م إلى موقع الشخص الثاني في آلة الدول في ثلاث سنوات فقط، وبعيدًا عن روايات المؤسسة البعثية عن دور صدام في الانقلابات وكونه قياديا وخططا وما إلى ذلك، تشير أغلب المصادر إلى أنّ صدام حسين ليس أكثر من قاطع طريق أو فرد من أفراد العصابات و (الشقاوات) وقد استخدمه البعثيون للتصفيات الجسدية التي مارسها ضد خصومهم ويرى المراقبون لشخصية صدام تأثيرًا واضحًا لخاله خير الله طلفاح الذي كان متأثرًا جدًا بالنازية وميّالا لطروحاتها .

ومما لا شك فيهِ أنَّ الدكتاتور لا يمكنه أن يصنع نفسه بمفرده، فضلًا عن تبعيته والدعم الخارجي الذي تلقاه، توجد عوامل أخرى مهمة شاركت في صنع شخصية صدام الدكتاتورية (من نوعين من الممارسة السياسية: الأولى تمثلت في اجادته عمليات التصفية السياسية للأفراد والجماعات الحزبية داخل تنظيمات الحزب وخارجها بتركيز السلطات بيده، مستندا في الحكم على حلقات ضيقة جدا من الاقارب والاصدقاء المقربين الذين لا يملكون صفات علمية او مهنية تؤهلهم لشغل مراكز قيادية في الدولة العراقية)، والثانية عسكرة الحياة وقد بدأها عندما كان نائبا بقيادته للأجهزة الامنية .

٢- **عسكرة الخطاب الاعلامي**: إنَّ استنساخ التجارب الدكتاتورية كاملة بدا واضحًا منذ الوهلة الأولى على سلوك انقلابي (١٧/تموز/١٩٦٨م)؛ ذلك لأنَّها التجربة النموذج لديهم؛ لأنَّ المؤسسة البعثية في العراق اتبعت الطرق التي استقطب بها الشعراء، ومنها: أن يكون الشعر سلاحًا في المعركة (المفترضة)، وقبل ذلك احتواء الأدباء وكسب مودتهم من خلال اطلاق سراح السجناء والسماح للمنفيين بالعود للبلاد واغراء كبارهم.

ولأنَّ القصيدة لم تعد قصيدة ولأنّها ستتعرض للعزلة وعدم القبول من الجمهور قامت المؤسسة الثقافية باستنفار جهودها للترويج لقصيد السلطة على حساب غيرها وظهر التثقيف لأدب بعثي وظهر الناقد البعثي لتكتمل أدوات السلطة في تحقيق الثقافة الشمولية وهي ثقافة حزب البعث .

بدأت السلطة بالعمل على أدب وخطاب بعثي بعد مدة قصير من انقلاب ١٧تموز، ففي البداية كان البعثيون بدون مثقفين تقريبا يعانون من عزلة شعبية واسعة ولكي ينجحوا في مسعاهم ذاك تبنوا لغة اليسار، فأخذ الخطاب التقدمي بصيغته البعثية يتسيد المشهد الثقافي قبل السياسي وبعد أنْ تمت استمالة كبار الشعراء صار لزاما عليهم ان يردوا الدين بادئ ذي بدء ثم أن يلتزموا بالوظيفة الشعرية والواجب الشعري التوثيقي جزاءً لما يناولون من عطاءٍ ومكافآتٍ .

وإذا كان الانقلاب هنا ايدلوجيًا أو وطنيًا ضمن مفهوم البعث البائد فإنّ الانقلاب الذي يعنينا هنا هو الانقلاب الشعري الفني وصار الترويج لنظرية نقدية بعثية .

٣- **<u>عسكرة الأدب والفن</u>:** ظهر مصطلح (الناقد البعثي) واحد من ابتكارات المؤسسة البعثية فلقد سعوا جاهدين إلى تبعيث ما يتوافق مع رؤيتهم السلطوية، فقد نشر عزمي محمد شفيق في جريدة الثورة بتاريخ (١٩٧٧/٩/٢٠م) مقالا بعنوان: (الحركة الشعرية والحاجة إلى منهج نقدي بعثي)، وقد يقال إن هو إلّا مقال واحد أُريد به التقرب للسلطة، لكننا نتساءل كيف برسالة ماجستير في كلية الآداب سنة ١٩٨٢م لطالب ماجستير (مصعب حسون الراوي) عنوانها: (ملامح المنهج البعثي في الأدب) وقد صارت بعد ذلك سنة ١٩٨٤م ـ تحديدا ـ كتابا صدر عن دائرة الشؤون الثقافية .

لقد اتخذت الثقافة البعثية مبدأ إقصاء أو إسكات الآخر، فإنها نجحت؛ لأنها ثقافة تقارير حزبية وتجسس، فالناقد حين يمتدح شاعرا على وفق منهج (مصعب حسون الراوي) يكون قد منحه شهادة حسن سير سلوك، وشهادة ولاء للثورة والمبادئ وشهادة نضال ضد الامبريالية وكلها شهادات سياسية علاقتها بالإبداع كعلاقة قضية فلسطين بالقادة العرب يرفعون تحريرها شعارا لبقاء سلطتهم .

كانت قضايا الثقافة تدار من قبل (المكتب القومي للثقافة والإعلام) الذي أسسه (صدام) في بداية السبعينيات وظل يشرف عليهِ ثم بدأت الأوامر تأخذ حيز التطبيق والترحيب والتصفيق بعد ادخالها الى الماكنة الثقافية، لتخرج بأشكال مختلفة من قصيدة الى قصة ورواية ونشيد واغنية ولوحة او ثقافة بشكل عام، فالوزارة في بداية سلطة البعث لم تكن وزارة ثقافة انما وزارة اعلام، والاعلام من بين مهامه إصدار المجلات الثقافية ويكون رئيس تحريرها عنصرا سلطوي الولاء وفعالا في الوسط الثقافي هذا ما جرى تماما .

ولم يكتفِ البعثيون باستعمار العقول والالسن وتوظيفها لخدمة سلطتهم وتعزيز وجودهم بل اخذوا يلاحقون ذهن المواطن في مفاصل حياته كلها، فالمستشفى الذي يراجعه المواطن يحمل اسم البعث او صدام، ومدينة الطب صار اسمها مدينة صدام الطبية، حتى مطار بغداد صار بأمر المقبور (مطار صدام الدولي)، وكذلك الجامعات وكلياتها وقاعاتها، فضلا عن مستشفى (عدنان خير الله)، وتسمية اغلب شوارع العراق واحيائه بأسماء من مثل: (البعث) و (الثورة) و (٧ نيسان) ليتمكنوا من اغتصاب كل الحياة الاجتماعية بعد أن اغتصبوا اللغة والأدب والثقافة والاعلام .